إِنْتِقَالُ صِفَاتِ الإِنْسَانِ لآخِرَتِهِ
(دَلِيلٌ قُرْآنِي)

د. أحمد الصفار
أكاديمي متقاعد
جامعة مانشستر- المملكة المتحدة

فحوى البحث

بحث استدلالي يُثبت أن الانسان اذا مات، فلا تبطل شخصيته المتمثلة في صفاته الدنيوية وأن ما سيكون عليه الانسان في الآخرة من سجية وأخلاق هي نفسها التي كان عليها في الحياة الدنيا، مالم يرأف به الله -سبحانه- فيغيرها لطفا به ورحمة، من قبيل: نزع الغِل من القلب وتصفية الطباع وإسقاط الوساوس، وإعطاء كل نفس مناها، وإسقاط الحسد... الخ. وبذلك تكون للبحث أهداف ثلاثة:

أولها: ابراز حقيقة انتقال الصفات مع الأعمال.

وثانيها: التعرف على الآيات التي تناولت هذا المبحث.

وثالثها: الاستفادة من معالجة القرآن الكريم لهذه الظاهرة.

وقد حذفنا قائمة المصادر من ذيل البحث لورودها مفصلة في الحواشي، فمعذرة...

الخلاصة:

أن الإنسان ينتقل لآخرته على حالته النفسية والأخلاقية التي كان عليها في دنياه تماما مالم يرأف به الله سبحانه فيغيرها لطفا به "فينزع الغل في الجنة لتصفية الطباع، وإسقاط الوساوس، وإعطاء كل نفس مناها، ولا يتمنى أحد ما لغيره"[١]، فقال تعالى ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [سورة الأعراف: ٤٣]. فالإنسان إذا ما أتى بعمل من الأعمال مرات كثيرة متوالية فستحصل في نفسه بسبب ذلك ملكة قوية راسخة. وستكتسب النفس نتيجة لتطبّعها على ممارسات معينة الكثير من الصفات الحميدة أو الرذيلة. وأن أفعال الإنسان مرهونة لملكاته التي جُبلت نفْسه عليها وأصبحت جزءاً من شخصيته وكما أن الموت ليس إبطالا للشخصية فأن ما سيكون عليه الإنسان في الآخرة من سجية وأخلاق هي نفسها التي كان عليها في الحياة الدنيا. فتنتقل صفات الإنسان كما تنتقل أفعاله الى النشأة الآخرة. وهناك شواهد قرآنية على ذلك تعرّض لها البحث.

أهمية البحث:

صحيح أن الأفعـال هي التي تقرر مصير الإنسان في النشأة الآخرة، كذلك هناك إشارات لانتقال صفاته وسلوكه للآخرة. وعليه فإن سلوكية الإنسان في الدنيا ترسم سلوكيته ذاتها في الآخرة. لأن " الدنيا مزرعةُ الآخِرَةِ"[٢]، ويجدر بالمرء أن ينتبه لذلك فالإنسان يتبع الصّورة الأخيرة للنّفس، الّتي اكتسبتها قبل الموت.

مقدمة:

من المعلوم، كما أخبرنا القرآن الكريم، انتقال أعمال المكلّف للنشأة الآخرة، وأنها محفوظة ومكتوبة، و "متجسمة"[٣]،[٤]، كما قال تعالى ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾[سورة آل

(١) التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي (٤٦٠ هـ)، ج٤، ص ٤٠٣.

(٢) ميزان الحكمة، محمد الريشهري، دار الحديث، قم، ج١، ص ٢٠٢.

(٣) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، محمد مكي العاملي، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، ج٤، ص٢٦٢.

(٤) مفاهيم القرآن، تجسّم الأعمال على ضوء القرآن والروايات، جعفر السبحاني، الاعتماد، إيران، ج٨، ص ٣٣٠.

عمران: ٣٠]، وفي قوله ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [سورة ق: ٢٢]. وفي هذا البحث سيتعرّض لانتقال الصفات أيضا، وليس المقصود بما يطرأ على النفس من أخطار طارئة. وأما الاخطار والهواجس النفسانية الطارئة على النفس من غير إرادة من الإنسان، وكذلك التصورات الساذجة التي لا تصديق معها كتصور صور المعاصي من غير نزوع وعزم لأنها غير مستقرة في النفس فإنها غير مشمولة بهذا الانتقال. وهناك إشارات قرآنية سنمرّ عليها إن شاء الله.

إن المعنويات التي نتكلم عنها فمسكنها ومستقرها هو القلب، ومنها الإيمان والحب والكره والنفاق وفساد السريرة أمثلة لذلك. وهي جميعها خيار الإنسان بتجرد، أما أفعاله وما يظهره من تصرفات -فقد يكون مُكرهاً عليها-وهذه تسيطر عليها الجسمانيات فتجعلها منقادة مطيعة وتسلبها حرية الاختيار. فالنفْس هي التي تحاسَب وليس الروح فإنها طاهرة. ولذلك فالنفْس ستكتسب نتيجة لتطبّعها على ممارسات معينة الكثير من الصفات الحميدة أو الرذيلة، وهذه هي التي نعنيها في بحثنا.

وطبيعي جدا؛ أن أفعال الإنسان مرهونة بملكاته التي جُبلت نفْسه عليها وأصبحت جزءاً من شخصيته. فإن "الثّواب والعقاب في الآخرة مخلوقان لنفس الإنسان حسب الملكات الّتي اكتسبها في هذه الدّنيا، بحيث لا يمكن لصاحب هذه الملكة، السُّكون والهدوء إلاّ بفعل ما يناسبها. وتقف الحركة ويبطل التّحوّل عند موافاة الموت، فعند ذلك تثبت لها الصّور بلا تغيير أصلاً. فهو يتبع الصّورة الأخيرة للنّفس، الّتي اكتسبتها قبل الموت"[٥]. فالأمر متعلق بما في السرائر، ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [سورة الطارق: ٩] وهذا ما يدفعنا لأن نفكر بتمعن في آيات الذكر الحكيم لاستظهار هذه الصورة. "إن الإنسان إذا أتى بعمل من الأعمال مرات كثيرة متوالية حصل

(٥) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، محمد مكي العاملي، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، ج٤، ص٣٧٢.

في نفسه بسبب ذلك ملكة قوية راسخة، فإن كانت تلك الملكة ملكة في أعمال نافعة في السعادات الروحانية عظم ابتهاجه بعد الموت، وإن كانت تلك الملكة ملكة ضارة في الأحوال الروحانية عظم تضرره بها بعد، إن التكرار الكثير إن كان سببا لحصول تلك الملكة الراسخة كان لكل واحد من تلك الأعمال أثر في حصول تلك الملكة، وذلك الأثر وإن كان غير محسوس إلا أنه حاصل في الحقيقة، وإذا عُرف هذا ظهر أنه لا يحصل للإنسان لمحة ولا حركة ولا سكون إلا ويحصل منه في جوهر نفسه أثر من آثار السعادة أو آثار الشقاوة قل أو كثر"[٦].

ويجدر بنا قبل ذلك أن نستعرض شخصية الإنسان وما يلم بها في حياته.

١. شخصية الإنسان:

تتألف شخصية الإنسان من صفات الإنسان وأخلاقه وميوله وأحاسيسه وكلها منبثقة عن عناصر الحياة. وإن للعقيدة أو ما يؤمن به الإنسان من فكر أو معتقد الفضل الكبير على مناهج التربية التي تسعى لبناء الإنسان، ومن يؤمن بالتكامل الروحي فإن للعقيدة تأكيدها على دور الايمان والعلم معا في بناء شخصية الإنسان. فتقوم العقيدة بدور تغييري كبير على صعيد البناء الاجتماعي والتربوي على مستوى الفرد والمجتمع، وهناك أمثلة قرآنية كثيرة على ذلك منها: إنقاذ النفوس البريئة للحفاظ على مجتمع متوازن خال من الدمار والموت وتوفير العدالة الاجتماعية للجميع ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾[سورة الإسراء: ٣١]، أو تعليم الناس على الإيثار على مستوى الفرد ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[سورة البقرة: ٢٠٧] والإيثار على مستوى الجماعة: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الحشر: ٩]، وبالمقابل تدعو الى هدم التمايز الطبقي وجعل الناس متساوين بالحقوق الحياتية من العيش والكرامة

(٦) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، (ت ٦٠٤هـ)، دار الحديث- القاهرة. ج١٩، ص ١٩.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾[سورة الحجرات: ١٣].

كما وأهتمت العقيدة كثيرا بمستوى بناء الفرد وتحميلة المسؤولية كاملة تجاه نفسه وغيره ابتداء من المحيطين به وهم اسرته ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾[سورة التحريم: ٦]، وذلك كله نابع من المسؤولية المنوطة به ﴿ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴾[سورة الصافات: ٢٤].

ولا ننسى أن العقيدة قد واجهت التصرفات السلبية المتوارثة ونهت عن ممارستها ووضعت بدائل عنها. وتجلى ذلك في محاربة العادات الجاهلية السائدة في المجتمع المسلم وهي كثيرة، والتي تطبّعت بالتخلّف والتعصب الأعمى لتلك الممارسات التي تخالف البناء الاجتماعي المتماسك والهانئ، الذي يسوده الأمن والرخاء. وجاء القرآن ذامّا لتلك العصبيات العمياء ﴿ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [سورة الفتح: ٢٦].

إنَّ لكلِّ عقيدة أثرا في نفس صاحبها، يدفعه إلى نوع من الأعمال والتصرفات، وبالتأكيد إن لعقيدة الإيمان بالله بشكل عام لدى الموحدين وعند المسلمين بشكل خاص آثارا في النفس عميقة، كان لها نتائجها العملية في الحياة العامة. فتنتج نفسا مطمئنة هادئة منتجة، ومتفائلة لا تيأس، وإيجابية تصمد أمام المصائب والهزات الاجتماعية والنفسية وكل شؤون الحياة وتتمتع بصلابة وقوة المعتقد، ولها غاية يسعى صاحبها لإتمامها على أحسن وجه، فتكون هادفة لا عشوائية في المراد والغاية. وقد أشار القرآن الكريم الى هذه العناوين في كثير من الآيات[٧]. ومنها ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[سورة البقرة: ٢١٦]، وكذلك ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[سورة آل عمران: ١٧٥].

(٧) [سورة البقرة: ٢١٦]، [سورة فصلت: ٤٩]، [سورة هود: ٩]، [سورة يوسف: ٨٧]، [سورة آل عمران: ١٧٥].

وبذلك فإن العقيدة الإسلامية تهتم كثيرا بالبناء الأخلاقي. وأن العقيدة تشكّل مرتكزا متينا للأخلاق، لأنّها تخلق الوازع النفسي عند الإنسان للتمسك بالقيم الأخلاقية السامية، على العكس من العقائد الوضعية التي تساير شهوات الإنسان، وتنمّي بذور الأنانية المغروسة في نفسه. وأنها تشكّل السور الوقائي الذي يحمي الإنسان من الانحدار والسقوط الأخلاقي. فأثاب الحسن الخلق وعاقب من يجاهر بسوئها، "إنَّ اللّه تبارك وتعالى ليعطي العبد من الثواب على حسن الخُلق كما يعطي المجاهد في سبيل اللّه يغدو عليه ويروح"(٨). فتدعو الإنسان الى أن يكون الأسوة الحسنة في المجتمع ليقتدى بها بعدما أعطانا الله سبحانه وتعالى أنموذجا يحتذى به وهو النبي محمدﷺ فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[سورة الأحزاب: ٢١]، لما يكتنزه الرسول الأعظمﷺ من خلق عظيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤]، وقد احتلت مسألة الأخلاق والاهتمام بها مساحة واسعة في العقيدة الإسلامية. فأنتجت له مفاهيما صالحة تعكس وجهة نظر الإسلام في شتى المجالات، كما أنتجت له عواطفَ وأحاسيسَ خيرة. كما أنها أسهمت في بناء الإنسان على كافة الصعد الفكرية والاجتماعية والنفسية والأخلاقية.

فإن أي فكر أو عقيدة كان عليها المرء فإنها سترسم وتحدد شخصية الإنسان وسلوكه وأفعاله وبالنتيجة صفاته وما ينتج عنها من أفعال وممارسات.

٢. هل تموت الشخصية بموت الإنسان؟.

وإذا تكلمنا عن مستقبل شخصية المرء بعد الموت، وتساءلنا هل تفنى شخصيته أم ترافقه الى النشأة الأخرى؟.

فيأتي الجواب: «إن الموت ليس إبطالا للشخصية، وأن الشخصية الحقيقية لا تضل أبدا في الأرض، وأما الضال في الأرض فهو البدن الذي هو بمنزلة اللباس لهذه الشخصية، لأن شخصيته هي روحه ونفسه وهي محفوظة في كلتا

(٨) أُصول الكافي، ج٢، ص١٠١، ف١٢ كتاب الايمان والكفر.

الحالتين. وحتى وإن استمرت عملية فناء الجسم المادي فإن الإنسان في الداخل (أنا) لا يتغير. وأن الذي يصرّ عليه القرآن هو عود البدن الذي كان الإنسان يعيش به في الدنيا، ولا يصدق عود الروح وحدها فقط»[٩].

أردت في هذا المقام أن أبين أن الإنسان يذهب لآخرته كما هو في دنياه تماما على حالته النفسية والأخلاقية التي كان عليها مالم يرأف به الله سبحانه فيغيرها لطفا به "فينزع الغل في الجنة لتصفية الطباع، وإسقاط الوساوس، وإعطاء كل نفس مناها، ولا يتمنى أحد ما لغيره"[١٠]، فقال تعالى ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [سورة الأعراف: ٤٣].

وعلينا أن نميّز بين الصفات والأفعال الأخلاقية ليتسنى لنا فهم المراد من هذا البحث. وعلى أساس ذلك نفهم أنه ليس المراد من بحثنا هذا هو مناقشة مسألة الثواب والعقاب بل التعرّض لسلوك الأفراد في النشأة الآخرة. "وطبعاً؛ الأعمال الأخلاقية، هي موضوع المباحث الفقهيّة لدى الفُقهاء، ولكن ومع ذلك، فإنّ علماء الأخلاق قد تناولوها بالبحث في دائرة السّلوك الأخلاقي للفرد، ومن الطّبيعي فإنّ نظرة عالِم الأخلاق، تختلف عن نظرة الفقيه، فالفقيه يبحث المسألة في إطار الأحكام الخمسة: (الحُرمة، الوُجوب، والاستحباب، والكراهة، والإباحة)، ولربّما تطرّق للثواب والعقاب، وللأعمال في نطاق الحياة الآخرة، ولكن عالِم الأخلاق ينظر إليها من منظار كمال الرّوح والنّفس، وانحطاطها وتسافلها في خطّ الانحراف، وبهذا يتبيّن الفرق بين الصّفات والأفعال الأخلاقية، ويتمّ من خلالها تمييز نظر الفقيه عن نظر عالِم الأخلاق. ورُبّما، ولأجل ذلك لم يفرق علماء الأخلاق بين هذين الإثنين في كتبهم الأخلاقيّة، فمرّةً يعرّجون على الصّفات الداخلية للإنسان، وأُخرى يتطرّقون للأعمال الخارجيّة، التي تستمد مقوّماتها من عالم الصّفات الباطنيّة، فيطلق على

(٩) الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، محمّد مكي العاملي، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، ج٤، ص ٢٨٠.

(١٠) التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي (٤٦٠ هـ)، ج٤، ص ٤٠٣.

الأول: (الصّفات الأخلاقية)، وعلى الثاني: (الأعمال الأخلاقيّة)"[11].

وليس المقصود من كلامي أن أتناول الموضوع من زاوية أن ما يعمله الانسان في الحياة الدنيا وأنه سيحصده في الآخرة، ويجازى عليه[12] -وإن كان ذلك صحيحا-ومن ذلك على سبيل الذكر ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [سورة الزلزلة: ٧ -٨]، فتكون نتيجته إما الى نعيم دائم أو الى عذاب شديد، على اعتبار أن تلك الدار الآخرة السعيدة تختص بالذين لا يريدون فساداً في الأرض بالعلو على عباد الله ولا بأية معصية أُخرى، لقوله تعالى ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة القصص: ٨٣]. "وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره، فإن ذلك مذموم"[13]. ولكن ما أريد إيضاحه هو: أن ما سيكون عليه الإنسان في الآخرة من سجية، وأخلاق هي نفسها التي كان عليها في الحياة الدنيا وأصبحت ملكات عنده.

وإنما السؤال هل تنتقل صفات الإنسان كما تنتقل أفعاله الى النشأة الآخرة؟.

وللإجابة عنه نبحث حول أن هذه الصفات التي تُسِرها النفس وتخفيها وتعمل بها وتظهرها بالأفعال والأعمال، وهي التي تبرّز سلوكه ومن ثم شخصيته في الدنيا وهي التي يجازى عليها الإنسان في آخرته. ولنا أن نستقرئ ونتفحّص آيات القرآن الكريم حول ما تضمره النفس وتخفيه.

٣. ما في النفس ينتقل للآخرة:

هناك آيات كثيرة تشير الى مسألة الاطلاع على ما تخفيه النفس، وما تسرّه

(١١) الأخلاق في القرآن، آية الله مكارم الشيرازي، مدرسة الامام علي بن ابي طالب عليه السلام -قم، ط٢، ج١، ص١٨٦-١٨٧.

(١٢) [سورة البقرة: ١١٠]، [سورة المزمل: ٢٠]، [سورة آل عمران: ٣٠]، [سورة النبأ: ٤٠]. [سورة النمل: ٩٠]، [سورة النساء: ١٠].

(١٣) تفسير القرآن الكريم، ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، ج٣، ص ٤١٣.

والتي يصطلح عليها بالسريرة وجمعها السرائر. "والسريرة تعني ما أسرّه الإنسان وأخفاه في نفسه"(١٤)، كما في قوله تعالى ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [سورة الطارق: ٩]. فيختبر الله سبحانه وتعالى سريرة الإنسان وما أخفاه في نفسه يوم الحساب، وما أسر في القلب من العقائد والنيات. فيصبح كل شيء واضحا جليّا وصريحا. "أن السرائر تظهر وتبدو، ويبقى السر علانية، والمكنون مشهوراً"(١٥). وهذا يعني أيضا أن طبيعة النفس وما تلبّست به وثبّتت عليه وهي شخصيته التي تميّز بها ستكون معه في الآخرة. فهذه الشخصية هي ما اكتسبته نفسه في الحياة الدنيا وثبتت عليها وليس ما كان طارئا في خاطر أو خيال، فقد عفانا الله من مشقة ذلك رحمة منه وتلطّفا كما قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٥]. بل يحاسبنا على ما انعقد في القلب واستقرّ في النفس من سلوكيات وممارسات اصبحت جزءً من شخصيته، وهي ملكات مخفية "فلا مستقر في النفس إلاَّ للملكات والصفات من الفضائل والرذائل كالإيمان، والكفر، والحب، والبغض، والعزم وغيرها، فإنها هي التي تقبل الاظهار والاخفاء"(١٦)، قال تعالى ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾[سورة البقرة: ٢٨٤]. "أما إظهارها فإنما تتم بأفعال مناسبة لها تصدر من طريق الجوارح يدركها الحس ويحكم العقل بوجود تلك المصادر النفسية المسانخة لها، إذ لولا تلك الصفات والملكات النفسية من إرادة وكراهة، وإيمان وكفر، وحب وبغض، وغير ذلك لم تصدر هذه الأفعال، فبصدور الأفعال يظهر للعقل وجود ما هو منشأها. وأما إخفاؤها فبالكف عن فعل ما يدل على وجودها في النفس.

(١٤) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج٢٠، ص ٢٦٠.

(١٥) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء عماد الدين (ت ٧٧٤هـ)، دار طيبة، ١٩٩٩. ج٤، ص ٥٣٢.

(١٦) الميزان في تفسير القرآن، م. س. ج٢، ص٤٣٦.

إن الوصفين الإبداء والإخفاء يدلان على أن ما في النفس يمكن أن يكون منشئا للظهور أو غير منشيء له وهو الخفاء، وهذه الصفات يمكن أن تكون كذلك سواء كانت أحوالاً أو ملكات"[١٧]. فهذه الملكات التي ثبتت في نفس الإنسان تنتقل معه الى النشأة الآخرة وأنه سيظهرها من خلال سلوكه؛ وهو ما على شخصيته في الحياة الدنيا. وأن الأخلاق "أول ما يوضع في ميزانه"[١٨].

"إنّ القرآن الكريم يريد أن يرسم الصورة كما هي في الدنيا، لأنّ الآخرة هي مرآة الإنسان في الدنيا، فلا يحشر الإنسان بخُلُق جديد ولا بفكر جديد؛ بل يحشر الإنسان على الصورة التي كان عليها، ليقف بين يديّ الله سبحانه، حاملاً صورته الحقيقية بكلّ ما تحويه من دوافع ونيّات وأفكار، ليحاسب على أعماله من خلال واقع حياته الذي كان"[١٩] وذلك هو قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٧٢] لعله من الواضح أن "تتجلى السجايا الروحية بالصورة البرزخية والأخروية، حيث أن إصلاح صورة النفس في الدنيا وتحصيل الفضائل لها وإزالة الرذائل عنها بيد الإنسان، وللعقائد الباطنة من الكفر والإيمان وللأعمال الظاهرة من الطاعة والعصيان دخلاً وافراً في تلك الصفات والملكات فلا جرم تكون الصور البرزخية والأخروية في تشكل هيئتها وحسن منظرها وبياضها وقبح مظهرها وسوادها بيد الإنسان، فله أن يشكلها بأي شكل أراد ويصورها بأية صورة شاء، غير أنه يبقى في الشخص شيء من وصفه الكمي أو الكيفي السابق، ليتعارف به في تلك النشأة في أبناء نوعه"[٢٠] فيجتمع أصحاب الخلق الواحد مع بعض فيقتربوا

(١٧) الميزان في تفسير القرآن، م. س. ج٢، ص٤٣٦.

(١٨) بحار الأنوار، المجلسي، دار إحياء التراث، ج٦٨، ص ٣٨٤.

(١٩) الحوار في القرآن: قواعده، أساليبه، معطياته، محمد حسين فضل الله، دار الملاك، بيروت، ص ٣٥٨.

(٢٠) دروس في الأخلاق، الشيخ علي المشكيني، نشر الهادي، طهران، ١٤١٨ هـ. ق، ج١، ص ١٦٢.

من بعض لاقتراب سجاياهم فيتعارفوا ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾[سورة يونس: ٤٥] فتتآلف قلوبهم، فإن "الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف"(٢١).

٤. أمثلة على سلوكيات الإنسان في الآخرة:

ومنها السلوكيات التالية:

١. التحية:

فمثلا تحية الإسلام والمداومة عليها في الحياة الدنيا فإنها ستترك أثرها في النفس وتصبح مَلَكةً. وحينما يلتزم المؤتمِر بأمر الله سبحانه وتعالى في الحياة الدنيا بتحية الله المبينة بالآية الشريفة ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾[سورة النساء: ٨٦] ويداوم عليها على طول حياته فإنها ستغدو مَلَكَة تتلبس شخصيته بها. وإنه سيكون عليها في الآخرة لما تطبّعت عليه نفسه في الحياة الدنيا وأيضا لالتزامه بالسنة المطهرة. ولكن مقابل ذلك فإن غيره الذي لا يلتزم بها ولا يلتزم بالأمر الإلهي، فإن هذا السلوك وهو عدم أداء التحية سيصبح من ملكاته أيضا. ومن المعلوم فقد كان بعض اليهود في الحياة الدنيا لا يأتمرون بذلك الأمر الإلهي ولا يحيّون بتحية الله مع غيرهم، وهي السلام عليكم، كما في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾[سورة الأنعام: ٥٤]، فكانوا يحيّون الرسول ﷺ (بالسامّ عليكم)(٢٢)، لكنّ الله سبحانه حيّاه بالتسليم وشرّع له ذلك تحية من عند الله مباركة طيبة، واليهود كانوا يحيونه

(٢١) علل الشرائع، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين القمي المشهور بالصدوق، (ت ٣٨١ هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ج١، ص٨٤، حديث شريف.

(٢٢) في رواية أنه (مرّ يهودي برسول الله ﷺ فقال: السام عليك، فقال رسول الله ﷺ: «وعليك» فقال رسول الله ﷺ: " أتدرون ما يقول؟. قال: السام عليك " قالوا: يا رسول الله، ألا نقتله؟. قال: " لا، إذا سلم عليكم أهل الكتاب، فقولوا: وعليكم، تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ)، دار الكتب المصرية-القاهرة، ١٩٦٤، ج١٧، ص٢٩٢.

بغيرها: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾[سورة المجادلة: ٨]، أقول: إن تحية هؤلاء المؤمنين في الآخرة هو كما كان في الحياة الدنيا وأن مزاجهم الروحي هو بنفس الشاكلة التي كانوا عليها في الحياة الدنيا، فوصفهم القرآن الكريم قائلا: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾[سورة يونس ١٠]، وكذلك وصف سلوكهم بأنهم لا يفارقون التحية التي كانوا مأمورين بأدائها في الحياة الدنيا وإن كانوا هم الآن في سلامة من أمرهم ويعيشون في سلام وأمان في جنات النعيم: ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾[سورة إبراهيم: ٢٣].

٢. الاستعلاء:

وفي مَثَلٍ آخر نرى أن في لغة المتكبر الاستعلاء والسخرية من الآخرين بطريقة تثير الاشمئزاز في الحياة الدنيا: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [سورة هود: ٢٧]. هؤلاء المتكبرون يصبح سلوكهم هذا هو السلوك نفسه في الآخرة، وذلك بأن يتبعوا الخُلق السقيم نفسه في ازدرائهم وتكبرهم المفضي لاحتقارهم الآخرين، وفي ذات الوقت نجد أنّ الأذلّاء في الحياة الدنيا سيتخذون نفس المنهج والسلوك في الآخرة فيبقون على ما هم عليه من الذل والإحساس بالحقارة والخسة والدناءة أمام المتكبرين.

من المهم التأكيد عليه؛ أنه فضلاً عن أسلوب الحوار الخاطئ بين المتكبرين وغيرهم من الأذلاّء، هو انتقال تلك الصفة السلبية التي كانوا عليها في الحياة الدنيا معهم للآخرة، إذ أن القرآن الكريم قد وسمهم بصفتهم الدنيوية التي كانوا عليها ولم ينعتهم بغير ذلك الوصف الذي كانت عليه شخصيتهم. فهم إما ضعفاء أذلاء أو مستكبرون متعجرفون. ولا ننسى أن كلا الفريقين هم في جهنم ولكن الله سبحانه وتعالى بّرز تلكما الصفتين اللتين كانوا عليها في الحياة الدنيا، فقال تعالى: ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ

﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾[سورة إبراهيم: ٢١]، وكان الحوار بين الفريقين أن قال "الضعفاء المقلِّدون للذين استكبروا منهم، إنا كنا في الدنيا لكم تابعين مطيعين من غير أن نسألكم حجة على ما تأمروننا به فهل أنتم مفيدون لنا اليوم تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله الذي قضي علينا"(٢٣)، لكن الآية ركّزت في الوقت نفسه على إظهار حقيقتيهما كما هي، وهما الضعف والهوان والذل والاتباع تماما كما كان عليه الفريق الأول في الحياة الدنيا، وأن التكبر والقوة والاستنكاف عن الإيمان بالله وآياته للفريق الثاني فاستصحبوا معهم تلك الصفات الى الآخرة.

ومن جهة أخرى فإنه لا يجري هذا التوصيف في الحوار الا بين الفريقين المتخاصمين. فيتحاورون بينهم بطريقة المخاصمة كما كانوا في الدنيا من الخصام والمراجعة في الكلام. فيتراجعون في الكلام متخاصمين. وهنا ((يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ)) وهو افصاح واضح وصريح لرجوع بعضهم إلى بعض في القول. وهؤلاء المستضعفون الأتباع يتذللون للذين استضعفوهم وهم المتبوعون كما كانوا في الحياة الدنيا وهم الأئمة القادة ((لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ)) يريدون من ذلك القول: أنكم أجبرتمونا على الكفر وحلتم بيننا وبين الإيمان. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾[سورة سبأ: ٣١].

وهناك "الجماعات التي تُقلِّد بعضها بعضاً، أو يتأثّر بعضها بالبعض الآخر، دون وجود عنصر الضعف والقوّة في التقدّم والتأخّر الزمني الذي يتأثّر فيه اللاحقون بالسابقين، لشعور بقداسة

(٢٣) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٢، ص ٤٤.

الماضي وبعصمة الماضين عن الخطأ في أغلب الحالات"[٢٤]، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[سورة الأعراف: ٣٨-٣٩].

٣. التخاصم والتلاوم:

وما دمنا عرّجنا على شخصية الأذلاء وما تميزت به من اتبّاع للمستكبر والتراجع في الكلام فهناك أمر آخر قد امتازوا به كما هي شخصيتهم. وأن ما تميّز به هؤلاء التابعون هو التخاصم والتلاوم ووضوح حالة الذلّ التي هم عليها أمام المتبوعين. ويؤكد هذه الحالة ما جاء في القرآن الكريم في أن تخاصماً واقعا بين الأتباع والمتبوعين يوم القيامة، والتعبير عنه جاء بالتساؤل الذي أثاره القرآن الكريم، وكما يبدو فإن في معنى سؤال بعضهم بعضاً هناك تلاوماً وتعاتباً. فيقول التابعون لمتبعيهم: لم أضللتمونا؟. فيقول المتبوعون: لم قبلتم منا ولا سلطان لنا عليكم؟. ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ [سورة الصافات: ٢٧ - ٣٠]. وتشير الآية التالية الى "السؤال عن استكبارهم عن طاعة الحق كما كانوا يستكبرون في الدنيا"[٢٥] ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [سورة الصافات: ٢٥].

وهناك مشهد آخر بين المشركين والموحدين. قال تعالى ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[سورة النحل: ٢٧]، فإن الموحدين "الذين وصفهم الله بأنهم

(٢٤) الحوار في القرآن: قواعده، أساليبه، معطياته، محمد حسين فضل الله، دار الملاك، بيروت، ص ٣٦١.

(٢٥) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٧، ص ١٣٢.

أُوتوا العلم وأخبر أنهم يتكلمون بكذا هم الذين رزقوا العلم بالله وانكشفت لهم حقيقة التوحيد"[٢٦]. والحقيقة أن تخاصمهم هذا هو ذاته الذي كانوا عليه في الدنيا حينما كانوا يصنَّفون بالكافرين، هذا من جهة ومن جهة أخرى، فقد وصفهم الله سبحانه وتعالى بتلبسهم بالإجرام فهم المجرمون ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾[سورة سبأ: ٣٢].

ويبدو أن ملكة لوم الذات او النفس تصاحب الإنسان، "والنفس اللوامة الكثيرة اللوم وليس من نفس برّة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها يوم القيامة"[٢٧] فأقسم سبحانه وتعالى بها فقال ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [سورة القيامة: ٢]، فالنفس الإنسانية تلوم الانسان يوم القيامة. "أما الكافرة فإنها تلومه على كفره وفجوره، وأما المؤمنة فإنها تلومه على قلة الطاعة وعدم الاستكثار من الخير"[٢٨].

٤. الكذب وإسرار الشماتة:

أصرار الكاذبين في النشأة الآخرة على ملكاتهم ومنها الكذب، "وحلفهم لله كان بين كل ذلك من قبيل ظهور ملكاتهم الرذيلة التي رسخت في نفوسهم فقد كانوا يسرّون الندامة في الدنيا خوفاً من شماتة الأعداء وكذلك يفعلون يوم القيامة مع ظهور ما أسرّوا واليوم يوم تبلى السرائر كما يكذبون بمقتضى ملكة الكذب مع ظهور أنهم كاذبون في قولهم"[٢٩]، فأسرّوا الندامة كما في قوله تعالى ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [سورة سبأ: ٣٣] وهكذا هم في الآخرة كما كانوا عليه في الحياة الدنيا يتخوفون

(٢٦) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ)، ج١٢، ص ٢٣٣.

(٢٧) مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بي الحسين الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥، ج١٠، ص ١٩٣.

(٢٨) الميزان في تفسير القرآن، م. س. ج٢٠، ص١٠٣.

(٢٩) الميزان في تفسير القرآن، م. س. ج١٦، ص٣٨٣.

من شماتة المستكبرين فأسروا الندامة حسرة في قلوبهم تعتصر قلوبهم ألما حينما يتعرضون لنفس الموقف: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [سورة البقرة: ١٦٧].

أمر آخر يمكن استدلاله من أن أصحاب الملكات الرديئة فإنهم يكذبون على الله سبحانه وأنه جل وعلا سيظهرها و "بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل في أنفسهم من الملكات الرديئة والهيئات المظلمة والصفات المهلكة ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه لرسوخ ذلك فيهم وإنهم لكاذبون في الدنيا والآخرة لأن الكذب عن ملكه فيهم"[٣٠]. "وكأنّهم- اليوم -يريدون أن يعبثوا من جديد، مطالبين بحياة جديدة وفرصة جديدة. ولكن لا مجال لعبث جديد"[٣١] كما تحدّث القرآن الكريم عن ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٢٧ -٢٨] على أي حال فإن ملكاتهم النفسانية "تظهر يوم القيامة فإنهم قد اعتادوا التمني فيما لا سبيل لهم إلى حيازته من الخيرات والمنافع الفائتة عنهم، وخاصة إذا كان فوتها مستنداً إلى سوء اختيارهم وقصور تدبيرهم في العمل"[٣٢].

وهناك التفاتة جميلة أشار لها الطباطبائي في مسألة ظهور ملكات الإنسان التي كانت في الدنيا من الكذب والنكران والرذيلة والخوف من الشماتة في الآخرة قائلا: "إن كذبهم على الله وإنكارهم الشرك بالله وحلفهم لله كان بين كل ذلك من قبيل ظهور ملكاتهم

(٣٠) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (تفسير الآلوسي)، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت ١٢٧٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ هـ. ج٤، ص ١٣٣.

(٣١) الحوار في القرآن: قواعده، أساليبه، معطياته، محمد حسين فضل الله، ص ٣٦٦.

(٣٢) الميزان في تفسير القرآن، م. س. ج٧، ص٥٢.

الرذيلة التي رسخت في نفوسهم فقد كانوا يسرّون الندامة في الدنيا خوفاً من شماتة الأعداء وكذلك يفعلون يوم القيامة مع ظهور ما أسرّوا واليوم يوم تبلى السرائر كما يكذبون بمقتضى ملكة الكذب مع ظهور أنهم كاذبون في قولهم"[٣٣] مما يدفعهم الى أن يسّروا الندامة إذ لم يعد ينفعهم ذات السلوك الذي كانوا عليه في الحياة الدنيا ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾[سورة سبأ: ٣٣].

٥. النفاق:

إن سجية المنافقين في الحياة الدنيا هي عينها في الآخرة من المراوغة والخداع وإظهار ما لا يؤمنون به فأرادوا في الآخرة أن يستخدموا ذات الأسلوب اعتمادا على مخالطتهم المؤمنين. فحكى الله تعالى أن المنافقين ينادون المؤمنين فيقولون لهم ألم نكن معكم في دار الدنيا ومخالطين لكم ومعاشرين؟. فيجيبهم المؤمنون فيقولون بلى كنتم معنا ولكنكم تعرضتم للفتنة وتربصتم بالمؤمنين الدوائر، فأرادوا أن يستخدموا ذات الأسلوب في الآخرة من التلوّن فقالوا بأننا كنا معكم: ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [سورة الحديد: ١٤].

٦. مواقف المؤمن:

١. ثبات الموقف:

إن طبائع المؤمنين في الحياة الدنيا مع الكفر والكافرين في المواقف الشرعية لا علاقة لها برقة القلب، "وانما لم يدرك اهل الجنة -مع خيريّتهم -رقة على اهل النار، لأن من الخيريّة القسوة على اعداء الله واعدائهم، وذلك من تهذيب طباعهم كما يبغض المسيء ويحب المحسن"[٣٤]، ولذلك فموقفهم في الآخرة هو ذاته حينما طلب الكفار من المؤمنين ما حرمّه الله عليهم. فكان امتناعهم عن إجابتهم امتثالا لأمر الله سبحانه وتعالى ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[سورة الأعراف: ٥٠].

(٣٣) م. ن.

(٣٤) التبيان الجامع لعلوم القرآن، الطوسي (٤٦٠ هـ)، ج٤، ص ٤١٦.

٢. طبائع الناس:

إن طبائع الناس في الآخرة يأخذونها معهم من دار الدنيا وهناك اشارات كثيرة في الآيات القرآنية تطرقنا الى بعض منها. وكذلك "هذا الذي يذكر من الهدى والضلالة في الدنيا يلازم الإنسان في الآخرة فالنشأة الأخرى على طبق النشأة الأولى فمن أبصر في الدنيا أبصر في الآخرة، ومن كان في هذه أعمى فهو من الآخرة أعمى وأضل سبيلاً"(٣٥) ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾[سورة الإسراء: ٧٢].

وكما كانوا في الحياة الدنيا لا يمارسون الطبقية في كل ألوانها فهم في الآخرة كذلك، إن جلساتهم الاجتماعية خالية من القيود المتعبة التي يُعاني منها عالمنا الدنيوي، فلا طبقية ولا ترجيح بدون مرجع والكل إخوان، يجلسون متقابلين في صف واحد ومستوى واحد. وبطبيعة الحال، فهذا لا ينافي تفاوت مقاماتهم ودرجاتهم الحاصلة من درجة الإيمان والتقوى في الحياة الدنيا، ولكنّ ذلك التساوي إنما يرتبط بجلساتهم الاجتماعية، فيصفهم سبحانه وتعالى في القرآن الكريم فيقول: ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [سورة الحجر: ٤٧].

٣. الناصح في الدنيا ناصح في الآخرة:

ويتجدد ذلك السلوك المعنوي بنقله للآخرة كما كان عليه المرء في الحياة الدنيا. فقصة الرجل المؤمن الناصح الهادف لتحقيق التوحيد بين المشركين فإنه ينبض حيوية وحركة في التبليغ مجدّا ساعيا في نشر رسالة الأنبياء فنهض لمساعدتهم. وحضه الدائم على تعبيد الناس لله الواحد الأحد. فقد كان يؤمن بالله إيمان إخلاص، ويعبده لا طمعاً في جنة أو خوفاً من نار بل لأنه أهل للعبادة ولذلك كان من المكرمين، ذلك الوصف الذي لم يوصف به إلا الملائكة وعباد الله المقربين ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾[سورة الذاريات: ٢٤]. ولم يرق ذلك لهم فقتلوه وهو على هذه الحال. "ولم يكن بين قتله بأيديهم وبين

(٣٥) الميزان في تفسير القرآن، م. س. ج١٣، ص١٥٢.

أمره بدخول الجنة أي فصل وانفكاك كأن قتله بأيديهم هو أمره بدخول الجنة"[٣٦] ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾[سورة يس: ٢٦-٢٧]، وكما يستدل من الآية الشريفة أن فعله هذا "هو نصح منه لقومه ميتاً كما كان ينصحهم حياً"[٣٧]، وتمنى أن يعلم قومه بما أعطاه الله تعالى من المغفرة وجزيل الثواب ليرغبوا في مثله وليؤمنوا لينالوا ذلك وهذا يؤشر على زعمنا بأن السلوك المعنوي وليس فقط الأعمال تنتقل مع الإنسان الى ما بعد حياته الدنيا. "وإنما تمنَّى علم قومه بحاله، ليكون علمُهم بكماله، سبباً لهم في استحصال مثل ذلك لأنفسهم، والرغبة منهم في سلوك طريقه، واكتسابهم العلم والإيمان، وتوبتهم عن الكفر والعصيان، تكثيراً لأهل الخير والإحسان، وسوقاً لعباد الله إلى الجنة والرضوان"[٣٨]، وفي الحديث "نَصَحَ قومه حياً وميتاً"[٣٩]. كما ويستدل من هذه الآية "تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والرأفة بمن أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمّر في تخليصه، والتلطف في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه. ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام؟"[٤٠].

٤. الصدق:

من الطبيعي أن مروءة المرء مع نفسه هو أن يحملها سرا على ما يجمل ويزين، وترك ما يدنس ويشين؛ ليصير لها مَلَكة في العلانية، فمن اعتاد شيئا في سره

(٣٦) الميزان في تفسير القرآن، ا م. س. ج١٧، ص ٧٩.

(٣٧) الميزان في تفسير القرآن، م. س. ج١٧، ص٧٩.

(٣٨) تفسير القرآن العظيم، صدر المتألهين محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي (ت ١٠٥٩ هـ)، دار الإيمان، قم، ج٥، ص ٦٥.

(٣٩) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، دار المعرفة، ٢٠٠٩، ج٤، ص١١.

(٤٠) تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ)، دار الكتب المصرية-القاهرة، ١٩٦٤، ج١٥، ص ٢٠.

وخلوته صار مَلَكَة في علانيته وجهره. فتقتضي مروءته استعمال كل خلق حسن، واجتناب كل خلق قبيح. وتجنب الدنايا والرذائل من الأقوال والأخلاق والأعمال؛ فمروءة اللسان: حلاوته وطيبه ولينه، وجني الثمار منه بسهولة ويسر؛ ومروءة الخلق: سعته وبسطه وتركه للخبيث والبغيض. والصدق ممارسة في الحياة الدنيا في القول والفعل ووفاء لما عاهد نفسه عليه. والصدق من الصادقين صدقهم في الدنيا بالتأكيد. قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ ﴾، فمن "الطبيعي أنّ المقصود من هذا هو أنّ الصدق في القول والعمل في هذه الدنيا هو الذي ينفع في الآخرة، لأن الصدق في الآخرة ـ التي لا تكليف فيها ـ لا ينفع شيئاً ثمّ أنّ الوضع في تلك الحياة مختلف بحيث لا يستطيع أحد إلاّ أن يقول الصدق، حتى المذنبون يعترفون بسيئات ما عملوا، وعلى هذا فلا وجود للكذب يوم القيامة. وعليه، فإنّ الذين أنجزوا ما كلّفوا به من مسؤولية ورسالة ولم يسيروا إلاّ في طريق الصدق"[41]. فالصادقون كانوا أوفياء لعهودهم وأقوالهم وأفعالهم. وكما هو معلوم فإن "كل وفاء صدق .وليس كل صدق وفاء. فإن الوفاء قد يكون بالفعل دون القول، ولا يكون الصدق إلا في القول، لأنه نوع من أنواع الخبر، والخبر قول"[42]. ومن مقدمات الصدق الاستقامة وعدم التبدّل طوال حياتهم حتى يلاقوا الله سبحانه وتعالى: ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴾[سورة الأحزاب: ٢٣]، وهؤلاء وصفهم الله سبحانه وتعالى بتلك الملكة التي كانوا عليها في حياتهم الدنيا وسمّاهم بالصادقين ويجزيهم على صدقهم، كما وصف الآخرين بصفتهم وهي النفاق وسمّاهم بها فيقول:

(٤١) الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، دار الولاء، ج ٤، ص١٨٨ -٢٠٥.

(٤٢) الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت ٣٩٥هـ)، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة. ج١، ص ٥٧٥.

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة الأحزاب: ٢٤].

الخاتمـــــــة:

تناول البحث فكرة انتقال الصفات والسلوكيات التي جُبلت عليها النفس، فلا عدم أو موت لشخصية المرء بل تنتقل مع الأعمال الى النشأة الأخرى. وسيُحشر الإنسان بما كان على شخصيته وصفاته في الحياة الدنيا. وقد تعرّض البحث للآيات التي أشارت الى ذلك. وتناول البحث سلوك أنموذجين من الشخصية وهما الملتزمة وغير الملتزمة. وتبيّن إن أية فكر أو عقيدة كان عليها المرء فإنها سترسم وتحدد شخصيته او سلوكه وبالنتيجة صفاته وما ينتج عنها من أفعال وممارسات التي سيحشر عليها. وتناول البحث عشرة أمثلة من الممارسات التي انتقلت الى النشأة الآخرة كان قد عرضها القرآن الكريم وتناولها البحث بالتحليل باتباع المنهج الاستقرائي والمنهج التحليلي، معتمداً في ذلك على الآيات القرآنية التي تناولت هذا الموضوع والتعرّف عليها وربطها بالواقع وذلك من خلال الرجوع الى كتب التفسير.